الفصل السادس عشر

مفهوم الأمة في الفكر العربي المعاصر: بين التجاذبات الأيديولوجية السياسية ورهانات الحداثة ودولة القانون

نوري ادريس

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

مقدمة

على غرار كثير من المفاهيم التي أنتجتها الحداثة، لا تزال معاني مفهوم «الأمة» تتأرجح بين المعنى الديني والثقافي والسياسي من دون الثبات على أي منها، ومن دون أن يفقد أي واحد من هذه الدلالات قوته وثباته حينما يقف أمام الدلالات الأخرى. بالفعل، لا تزال جميع المعاني التي شحن بها مفهوم الأمة في خطاب التيارات السياسية والفكرية المختلفة في العالم العربي تسير في خط متواز، لا تلتقي ولا يعترض أحدها طريق الآخر إلا حينما يقوم مفكر ما بالنظر إليها من الأعلى ليلاقيها فكريًا، لكنه سرعان ما يكتشف عدم انزعاج بعضها من بعضها الآخر على أرض الواقع. يستعمل كل تيار فكري أو سياسي هذا المفهوم من دون أن ينزعج إطلاقًا مما يمكن أن يشير إليه عند الآخرين، بل يكاد كل تيار ينغلق على تصوره ولا يقدر حتى على تصور وجود معانٍ أخرى في بعض الأحيان، ويمكن اكتشاف هذه الحقيقة بسهولة عجيبة من خلال إلقاء نظرة سريعة على الأدبيات المكتوبة عنه: عادة ينغلق كل تيار فكري و/ أو سياسي داخل ما يسميه محمد أركون السياج الدوغمائي (العقائدي) الذي يمنعه من إلقاء نظرة إلى ما وراء هذا السياج، وبذلك يجعل إعادة إنتاج هذه المفهوم حبيسة الأطر الدوغمائية التي ينتمي إليها، رافضًا له كل تقدم أو دينامية.

أما عن انتشار معنى مختلف لمفهوم الأمة عن غيره في مجتمعات العالم العربي، فغالبًا ما يرتبط بمدى قدرة دلالة ما على استثمار المتخيل الاجتماعي لهذه المجتمعات، أو بالأحرى مدى قدرة تيار ما على شحنه بالدلالات الدينية التي تصبغ الثقافة والتصورات الاجتماعية لإنسان الشارع في العالم العربي[1]. ربما

(1) أستعمل هنا مفهوم إنسان الشارع للدلالة على الأفراد العاديين (الجماهير الشعبية)، وهذا لتمييزهم من النخب السياسية أو الفكرية. وبالتالي لا يحمل هذا المفهوم أي معنى سلبي أو حكم نخبوي.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

على هذا الأساس يمكن تفسير انتشار الحركات الإسلامية وتصوراتها المنتجة في شأن الحياة والمجتمع بأبعادها المختلفة. هنالك من يستعمل مفهوم الأمة لتحقيق أهداف سياسية آنية، تتمثل بتجييش الجماهير، وهنالك من يستخدمه كمفهوم نقدي دينامي يهدف إلى تحقيق مشروع حداثي بعيد المدى وغير شخصي، يتطلع إلى فتح ثغرة في جبل الجمود السياسي والفكري الذي لا تزال تعيشه المجتمعات في العالم العربي.

لهذه الأسباب أصبح الاشتغال على موضوع الأمة مهمة شاقة وغاية في الخطورة، لأن «الأيديولوجية تعترض دائمًا ودون توقف طريق المفكر، عالم الاجتماع، عالم السياسة والمؤرخ»[2]، على حد تعبير المؤرخ الفرنسي المعروف جيلبر مينييه.

بصفة عامة لا يزال استعمال مفهوم الأمة في الخطاب الفكري و/أو السياسي في العالم العربي متأرجحًا بين الاستعمال الأيديولوجي والاستعمال الفكري النقدي، لكن في نهاية المطاف، هل يمكن حقًا اكتشاف الحدود الفاصلة بين الأيديولوجي والفكري بدقة؟ ربما هذا ما أراد أن يشير إليه أعلاه المؤرخ الفرنسي، فمهما ادّعينا تعالينا الفكري عن الخطاب الأيديولوجي إلا أن الأيديولوجيا تبقى «تهمة» يسهل إلصاقها بأي كان. لهذا، نحن لا ندعي أننا سنكون بمنأى عن الأيديولوجيا في تناولنا موضوع الأمة في الفكر العربي المعاصر، لكن سنحاول فحسب مناقشة انعكاسات تأرجح هذا المفهوم بين دلالات ماضوية، سياسية تعبوية، ودلالات اكتسبها المفهوم في أثناء تجربة الحداثة التي عرفتها أوروبا الغربية.

منذ تجربة الحداثة التي عرفتها أوروبا الغربية، صار مفهوم الأمة/ الدولة – الأمة غير مؤسَّس على عناصر ثقافية، عرقية، لغوية أو دينية... إذ استطاعت دينامية الدولة الحديثة (دولة القانون) تجاوز جميع العناصر الطبيعية التي كانت تشكل بناء الأمة وعوّضتها بعناصر أخرى بنيت تاريخيًا، «ليصبح شكل الأمة الحديثة نتيجة موضوعية لجملة من العمليات والسيرورات الاجتماعية والاقتصادية

(2) Gilbert Meynier, «Problématique historique de la nation algérienne,» *NAQD. Revue d'études et de critique sociale*, nos. 14-15 (Automne - Hiver 2001), p. 25.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

والثقافية والعلمية والتقنية والسياسية والفكرية والأخلاقية تذهب كلها في اتجاه واحد نحو مجتمع مدني حديث ودولة سياسية حديثة، أي نحو عقد اجتماعي وسياسي وأخلاقي بين أفراد تحرروا من الروابط الأولية والعلاقات الطبيعية»[3]. على كل، سنعود بتفصيل أكبر إلى مفهوم الأمة/ الدولة - الأمة في الفكر السياسي المعاصر، ونكتفي هنا بهذا التعريف الأولي لنؤكد من خلاله وجود تغيُّر عميق وقطيعة معرفية وتاريخية في مفهوم الأمة؛ كل هذا من أجل سحب النقاش من فضاء الأيديولوجيا والثقافوية الضيقة إلى فضاء أكثر رحابة واتساعًا وواقعية، بل أكثر ارتباطًا برهانات مستقبل مجتمعات العالم العربي. بتعبير آخر نريد القول إننا نهدف هنا إلى زحزحة النقاش من سجالات في شأن مفهوم الأمة تدور حول عناصر الدين، اللغة، الجغرافيا و«التاريخ والمستقبل المشتركين»[4] وغير ذلك من العناصر غير المتحكم بها إلى نقاش يفتح آفاقًا مستقبلية، نتمنى أن تكون عملية، في نقد الواقع أولًا، ثم في مواجهة تحديات العيش المشترك في كنف السلم الاجتماعي في ظل توترات مسلحة في شأن السلطة السياسية في بعض المجتمعات العربية، تنذر كلها بالتراجع إلى عهد ما قبل الدولة، أو على الأقل عهد اللادولة على الطريقة الأفغانية والصومالية. لا يتعلق الأمر إذًا بنفي القدرة على بناء الدولة - الأمة لمجتمعات العالم العربي، لأن الدولة - الأمة والديمقراطية والمجتمع المدني هي بنى تاريخية لا يمكن أن تحتكرها جماعة إثنية أو عرقية أو ثقافية محددة[5]، بل يمكن أن تتشكل كلما توافرت الأوضاع الموضوعية لذلك.

يتعلق الأمر إذًا بمحاولة إحداث قطيعة إبيستمولوجية، أولًا، على الصعيد الفكري المنهجي تتيح إعادة النظر في كيفية مقاربة مفهوم الأمة في المرحلة الراهنة من أجل وضعه في سياق دينامي تاريخي أشمل وأكثر واقعية. وثانيًا،

---

(3) جاد الكريم الجباعي، «الأمة.. والعصبية القومية،» الأوان، 3 تموز/يوليو 2008، على الرابط: <http://www.alawan.org/article2189.html>.

(4) في كتابه تصورات الأمة المعاصرة: دراسة تحليلية لمفاهيم الأمة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، أشار ناصيف نصار إلى وجود أربعة تصورات رئيسة للأمة: التصورات الدينية، التصورات اللغوية، التصورات الإقليمية، والتصورات السياسية. انظر: ناصيف نصار، تصورات الأمة المعاصرة: دراسة تحليلية لمفاهيم الأمة في الفكر العربي الحديث والمعاصر (الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1986).

(5) ليست المجتمعات الأوروبية كلها ديمقراطية وليست المجتمعات الديمقراطية كلها أوروبية.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

إحداث قطيعة سيكولوجية في وجدان إنسان الشارع في العالم العربي تهدف إلى استبدال حال الارتياح والسكون والاسترخاء مما هو متداول في شأن مفهوم الأمة في الخطاب السياسي و/ أو الفكري في التراث الإسلامي والقومي، بحال حيرة وقلق وعدم ارتياح من أجل تجاوز حالة سيكولوجية تفضِّل الاحتماء في الماضي عوض مواجهة تحديات المستقبل.

نعتقد أنه من الأهمية زعزعة الأسس السيكوسوسيولوجية (psychosociologiques) والأنثروبولوجية والثقافية التي تعيد إنتاج الوضع الراهن لمجتمعات العالم العربي، وإحدى أهم أدوات الزعزعة هذه هي نزع المشروعية الدينية والثقافية والأيديولوجية عن الخطاب السياسي للحركات السياسية الإسلاموية[6] التي يلاحظ أنها تستمتع أشد استمتاع بهروب الوعي العربي - الإسلامي للاحتماء في الماضي الأسطوري الذي تتغذى منه هذه الحركات بقراءات وتأويلات تحويرية تجزيئية للتاريخ والتراث، لتستعمله كمورد سياسي للتجنيد والتعبئة. ضمن هذا المنظور تقع محاولتنا في نقد مفهوم الأمة في الخطاب السياسي و/ أو الفكري للحركات الإسلاموية في العالم العربي، باعتبار أن المعنى الأكثر انتشارًا وتداولًا للمفهوم هو ذلك الذي يغذيه خطاب هذه الحركات.

أولًا: مفهوم الأمة في فكر التيارات السياسية و/ أو الفكرية الإسلامية

من الصعوبة الإحاطة بجميع الأدبيات التي تناولت موضوع الأمة في فكر التيارات السياسية و/ أو الفكرية الإسلامية، ولهذا سنحاول هنا الاكتفاء بجمع أهم خصائص هذا المفهوم مثلما هو متداول في الساحة الفكرية، الإعلامية والسياسية اليوم.

---

(6) أستعمل هنا مفهوم الإسلامويين بدلًا من الإسلاميين نظرًا إلى شساعة الفرق بين هذين المفهومين، ولا أخفي هنا إعجابي بالفرق الذي قدمه المفكر محمد أركون في كتاب أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، فالإسلاموي هو ذلك الشخص الذي يستعمل الإسلام والعقيدة بشكل متطرف، ويستخدم بعض معطيات الإسلام أو بعض مفردات المعجم الديني القديم من أجل قيادة معركة سياسية معينة. أما المفكر الإسلامي فيقول أركون، إنه يمتاز بالرصانة واستخدام منهجيات تحليلية وجهازًا تصوريًا أو مفهومًا دقيقًا جدًا وشديد التعقيد والتبلور... انظر: محمد أركون، من فيصل التفرقة إلى فصل المقال: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة وتعليق هشام صالح، ط 4 (بيروت: دار الساقي، 2010).

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

اختار محمود سعد محمود المفكر الإسلامي رشيد رضا ليعرض من خلال أفكاره ومؤلفاته أهم خصائص مفهوم الأمة، وتكمن أهمية اختيارنا رشيد رضا، في محورية هذه الشخصية الفكرية والسياسية والتاريخية في بلورة الفكر الإخواني المسيطر حاليًا على التيار الإسلامي في العالم العربي. إنه تلميذ محمد عبده، رجل الإصلاح والنهضة العربية، وأستاذ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. لهذه الأسباب يعتبر فكر رشيد رضا في شأن مفهوم الأمة حلقة أساسية ومحورية في سيرورة بلورة المشروع السياسي الإسلاموي الذي شكل ميلاد حركة الإخوان المسلمين نقطة انطلاقه.

«الأمة» عند رشيد رضا، والفكر الإخواني بصفة عامة، هي «تلك الجماعة التي تربطهم رابطة اجتماع يعتبَرون بها واحدًا، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد، وهي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص، سواء أكانت كبيرة أو صغيرة، ويختلف هذا الرابط باختلاف الأمة..»[7].

بهذا، الأمة في الحضارة الإسلامية عند رشيد رضا، «مفهومًا سياسيًا وعقائديًا ذي [كذا] مكانة خاصة في الفكر السياسي الإسلامي، باعتباره تجمعًا عقديًا قيميًا ناجمًا عن تفاعل أفراد من البشر مع مبادئ كلية وقيم عامة تتجاوز الخصوصيات الطبيعية التي تمايز بين الناس: من لون وعرق ولغة وإقليم ويتجاوز الاجتماع الموحد والتجانس المشترك الذي قصدته الحضارة الغربية»[8].

يحدد رشيد رضا أبعاد الأمة الإسلامية في ما يلي[9]: البعد الشرعي، البعد التربوي، البعد التاريخي، البعد الاجتماعي. أما خصائصها فهي: النظام، الوسطية.

لا تختلف التعاريف الأخرى لمفهوم الأمة اختلافًا جوهريًا عما قدّمه رشيد رضا، فما عدا بعض الاختلافات البسيطة في التفصيلات، فهي تتفق كلها على أن الدين الإسلامي هو الوعاء المشكل للأمة. يمكن مثلًا أن نجد هذا التصور

---

(7) محمود سعد محمود، «مفهوم الأمة وخصائصها في فكر الشيخ محمد رشيد رضا،» **الألوكة الثقافية**، 23/ 1/ 2010، على الرابط: <http://www.alukah.net/culture/0/9330/>.

(8) المصدر نفسه.

(9) المصدر نفسه.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

عند بعض معاصريه كمحمد توفيق البكيري وعبد العزيز جاويش، فهما «يربطان مفهومي الوطن والوطنية بالدين، فالوطن مرادف للدين وهو مجموع الأمة الإسلامية... لا وطنية في الإسلام غير الوطنية الملازمة للأمة الإسلامية[10].

المقاربة نفسها تقريبًا نجدها عند السيد عمر الذي يرفض جميع المقاربات التي لا تنتظم حول الإسلام، بل يسميها مقاربات تغريبية لمفهوم الأمة. يدعو السيد عمر إلى الاحتفاظ بالمفهوم القرآني للأمة نفسه، ويرى أن ما عدا ذلك انحراف عن مقاصد القرآن وأهداف الشريعة. إنه يذهب أبعد من ذلك حينما نجده يصف محاولات إعادة النظر في مفهوم الأمة وفق مقاربة تغريبية أو عروبية، بأنها فيروس حقيقي يريد أن يبعد الشريعة الإسلامية من بناء تصوراتنا في شأن الأمة[11].

لا يتسع المقام هنا لعرض المزيد من التعاريف والمفهوم للأمة، مثلما أن الاقتصار على التعاريف الأكاديمية التي يقدمها من يوصفون عادة بالمفكرين الإسلاميين يجعلنا نغفل جانبًا مهمًا من الخطاب السياسي والإعلامي الذي يظهر أنه الأكثر تأثيرًا اليوم في عقول الملايين من العرب.

إذًا، الجانب الآخر من الإشكالية هو استعمال النخب السياسية المعروفة عند العامة بالتيار الإسلامي (الذي أفضِّل وصفه بالإسلاموي) مفاهيم: «الأمة»، «الأمة العربية الإسلامية»، «الأمة الإسلامية»، «الأمة المحمدية»... في خطابها التجنيدي، الدعوي والتعبوي. بالفعل، لا يكاد يخلو مهرجان انتخابي، أو نشاط سياسي لهذه الحركات السياسية من ترديد مفهوم الأمة الإسلامية، الأمة العربية الإسلامية، الأمة، عشرات المرات.... وكثيرًا ما تُكرر على مسامع المناضلين والأتباع شعارات: «نحن أمة واحدة»، «نعمل لما فيه صلاح الأمة»، «يجب أن يشارك جميع أبناء الأمة»، «الأمة في خطر»، «مجد الأمة»، «تقوية أواصر الأمة» وهي كلها شعارات سياسية تتغذى من مفهوم الأمة لتنفذ بسرعة إلى قلوب

---

(10) السيد عمر، «حول مفهوم الأمة في قرن: نقد تراكمي مقارن،» مركز الحضارة للدراسات السياسية، على الرابط: <http://www.hadaracenter.com/pdfs/%D8%AD%D9%88%D9%84%20%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%85%D8%A9%203_1.pdf>.

(11) المصدر نفسه.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الملايين من المسلمين المقهورين، المستضعفين، الناقمين على الأوضاع السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي.

بالنسبة إلى خطاب هذه الحركات، يكاد يكون استعمال مفهوم الأمة بدلًا من الدولة، البلد، الوطن، القومية... شائعًا وغالبًا، بل يكاد يكون أمرًا ضروريًا، يتربى عليه المناضلون وهم في سن ما قبل الرشد السياسي[12]. يجد الإسلاميون سهولة أكبر في الوصول إلى مشاعر الملايين وقلوبهم حينما يخاطبونهم بمفهوم الأمة، لأن هذا المفهوم لا يزال مشحونًا إلى درجة الفيضان، بالقداسة الدينية. إنه أحد مفردات المعجم الديني الذي يجد الإسلاميون سهولة عجيبة في انتقاء مفرداته واستعمالها بما يلائم الظرف من دون الأخذ بتاريخانيتها (Historicité) ولا بالسياقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الجديدة.

يخاطب الإسلامويون بمفهوم الأمة الأحاسيس لتجنيدها، نظرًا إلى ما شحن به من مشاعر في المتخيل الاجتماعي للمسلم والعربي، إنه يهرب بعقل الجماهير التي أنهكتها صعوبات وقساوة الحياة اليومية إلى السنوات الأولى للوحي، العصر الذهبي للأمة الإسلامية التي خلقها القرآن الكريم، أمة كانت متحدة لا تعرف حدودًا بين قطر وآخر. ولمفهوم الأمة مفعول سحري في قلوب الملايين من المسلمين وعقولهم يكاد يضاهي مفعول الوحي القرآني نفسه في زمننا هذا، كيف لا؟ والقرآن هو الذي خلق مفهوم الأمة وطوّره. حينما يخطب قائد حركة سياسية إسلاموية في مهرجان انتخابي ويستعمل عبارات «الأمة» فإن الحشد الصغير الذي يتابعه يحس أنه جزء من مجتمع كبير مستعد لنصرته والانتصار له[13].

من الواضح إذًا، أن صدى مفهوم «الأمة» عند الفرد العربي والفرد المسلم

---

(12) نريد أن نشير هنا إلى استثمار الحركات السياسية الإسلاموية في العالم العربي في العمل الجمعوي، الكشفي والخيري، لبرمجة عقول الأطفال في المخيمات الصيفية على فكر الإخوان والسلفيين. ولهذا ينشأ المناضل الإسلاموي الإخواني تنشئة سياسية تجرده من النقد والمشاركة، وتفرض عليه الطاعة والانصياع.

(13) لا يزال الفكر الإخواني يعلن صراحة في برنامجه الانتخابي أنه يعمل على العودة إلى عصر الخلافة. اعتقدنا أن التجربة التي مرت بها تونس خلال حكم بورقيبة وبن علي دفعت الإخوانيين إلى مراجعة فكرهم، أو على الأقل هذا ما كان يبدو لنا في الأيام الأولى من سقوط نظام بن علي، لكن ما إن وصلت النهضة إلى السلطة حتى بدأت تعلن صراحة دعوتها إلى بناء نظام الخلافة.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

قوي التأثير وشديد الفاعلية، لأنه يسمح بنسيان الواقع المتشرذم للدول العربية ولو للحظات، ويسمح له بعيش لحظات من الوحدة اليوتوبية التي لم تتحقق حتى في «عز الدولة الإسلامية». إن هذا المفهوم يواجه ما تعيشه بلدان العالم العربي خاصة، والعالم الإسلامي عامة، من صراعات بينية واستقطابات إقليمية مع قوى «أجنبية» على ساحة معركة متخيلة (أرضية متخيلة)، يواجهها بالرجوع إلى ماضٍ لا أحد يستطيع أن يتحقق من صحة جميع تفصيلاته المروية على مسامعنا في كتب التاريخ المدرسية.

الإشكال الذي يطرحه مفهوم الأمة في الخطاب السياسي و/ أو الفكري للحركات الإسلاموية هو تأرجحه بين الدلالة تارة على «أمة موجودة مكتملة البناء منذ نزول الوحي»، وتارة أخرى يشير إلى دعوة للمسلمين إلى بناء أمتهم التي تنتظر التجسيد على أرض الواقع بما أن شروط إنجازها متوافرة منذ 14 قرنًا: الإسلام. هذا التأرجح لا يُلاحظ بين مفكر وآخر فحسب، بل يمكن اكتشافه داخل فكر المفكر أو القائد السياسي نفسه. إن ما يحكم تفضيل استعمال موقف على آخر هو استراتيجيا الخطاب نفسه: يستعمل مفهوم الأمة للتعبئة الأيديولوجية والسياسية أحيانًا، فيُصور العالم الإسلامي ككل على أنه أمة تنتظر من يعيد إليها مجدها، وهنا يقدِّم الإسلامويون أنفسهم على أنهم الوحيدون القادرون على تحقيق المهمة ما داموا هم من احتكر الرأسمال الرمزي للإسلام كله. في هذه الحال، يظهر مفهوم الأمة في منزلة مورد سياسي تستعمله التيارات السياسية الإسلاموية لاحتكار «متخيل» ضاربة جذوره في عمق التاريخ، وهذا كله من دون أن يقدم هذا الخطاب، المولع بالأمة، أي برنامج عملي لإعادة الروح إلى الأمة الإسلامية، بل يستدعيه من أجل إضفاء المشروعية الدينية الإسلامية على خطابه وموقفه فحسب.

أحيانًا أخرى، في استعمال مفهوم الأمة دلالة توحي بوجود «أمة إسلامية» قائمة منذ نزول الوحي، فهي ليست سيرورة تاريخية، بل هي بناء عارض تشكَّل تلقائيًا بعد نزول الوحي القرآني وأخذت في التوسع - ولا تزال - بتوسع دائرة المسلمين المؤمنين على الأرض. لا تهم قوتها ولا ضعفها بقدر ما يهمها وجودها كبناء مجرد متعال، يحس جميع المسلمين بالانتماء إليه، وبالتالي فهي - «الأمة» - لا تطرح أي رهان سياسي أو حضاري، عدا رهان توسيع دائرة المؤمنين المسلمين.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

في هذه الحالة أيضًا، يظهر هذا الاستعمال وفق هذه الدلالة تعبيرًا عن استراتيجيا سياسية تقتضيها أحوال «الحرب» مثلما تميل هذه الحركات إلى أن تتخيل. إن المعركة بالنسبة إليها، ليست معركة بناء دولة القانون بالمفهوم الحديث للكلمة (بعضهم يقول بالمفهوم الغربي)، لكن الرهان هو توسيع حدود الأمة إلى أقصى بُعد ممكن، فكلما اتسعت الحدود كلما زاد وعاء التابعين، الوهميين والحقيقيين، الفعليين والمفترضين، لهذه الحركات. حينما يصورون في خطابهم على مستوى بلدانهم أن مشروعهم يندرج ضمن مشروع أمة أوسع بكثير من الانتماء القطري، فإنهم بذلك يبعثون رسائل إلى خصومهم «العلمانيين»: رسالتنا رسالة أمة، تخاطب الملايين التي تتشارك وتتحاب في انتمائها إلى أمة الإسلام... أمة أعزها الله وكرّمها على حساب الأمم الأخرى.

تجدر الإشارة أيضًا إلى أن الخطاب السياسي للحركات الإسلاموية غير متجانس، وقد يبدو في كثير من الأحيان متناقضًا مع نفسه. هنالك من الأحزاب السياسية ذات التوجه الإسلامي في البلدان التي تعرف تعددية سياسية في العالم العربي من يدرك جيدًا أن الفرد العربي المسلم أخذ عقله يتجاوز خطاب «الأمة الإسلامية الموحدة» التي تمتد من المحيط إلى الخليج، مثلما تجاوز أيضًا الخطاب القومي العروبي. ولذلك كيفت هذه الأحزاب خطابها السياسي التعبوي التجنيدي مع مقتضيات المعركة السياسية التي تخوضها. إنها نادرًا ما تستعمل مفهوم الدولة، وتفضِّل عليه مفهوم الأمة، تارة أمة قائمة، وتارة أخرى أمة تنتظر من يعيد إليها مجدها، وتدعو من خلال ذلك الجماهير إلى الالتفاف حول مشروعها الفكري الأيديولوجي الحضاري... إنه خطاب يحاول أن يقنع الجماهير، التي بدأ مخيالها يتعلمن شيئًا فشيئًا، بأن أمة «إسلامية» لا يمكن أن تقوم على عنصر آخر غير الإسلام، أما الدولة القُطرية التي بدأ الاعتراف بها يزداد يومًا بعد يوم حتى وإن كان ذلك لمرحلة موقتة فحسب - فهي جزء من قطعة البيزل (puzzle): الأمة الإسلامية المباركة[14].

(14) في الجزائر مثلًا، لاحظ المؤرخ محمد حربي أن هنالك تيارين رئيسين يتنافسان: تيار يرى في الجزائر أمة قابلة للتشكل ضمن خصائصها السوسيولوجية والثقافية، وتيار آخر لا يرى في الجزائر إلا جزءًا صغيرًا من أمة أوسع منها هي الأمة الإسلامية. بالفعل تحول هذا التنافس اقتتالًا خلال الأعوام الأولى من الانفتاح السياسي لأن الانفتاح لم يضع مؤسسات لحل الخلافات الأيديولوجية بطريقة =

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يحاول الخطاب الإسلامي شحن هذه الأمة بجميع الفضائل لأنها أمة الإسلام، وبالتالي فإنه يضع حدودًا صارمة لعملية النقد، وفي أحسن الأحوال يقوم بنقد انتقائي حتى للمشكلات التي جعلت العرب متأخرين عن العصر بقرون. ويكتفي في الغالب بنقد أخلاقي «لواقع الأمة» التي يرى مشكلتها في ابتعادها - ابتعاد أبنائها - عما كان سببًا في قوتها زمان السلف الصالح؛ كلما ابتعد المسلمون عن الإسلام كلما زاد هوانهم وذلهم وزادت الأمة ضعفًا وانبطاحًا أمام الأمم الأخرى، فإذا كان للأمة مشكلة اليوم فإن مشكلتها في دينها وأخلاقها. كما يتحاشى هذا الخطاب انتقاد الأسس الثقافية للمجتمعات الإسلامية والبنى التقليدية التي تكرس هذا الوضع على الرغم من أن دراسات كثيرة تربط استمرار الاستبداد والتخلف باستمرار الثقافة التقليدية التي لا يتوافق كثير من عناصرها مع الحداثة. يعرف الإسلاميون جيدًا أن سبب استمرار شعبيتهم في المجتمعات العربية، هو خطابهم الشعبوي (Populiste)، الماضوي والأخلاقي الذي يجد صدى واسعًا في الثقافة التقليدية المصطبغة بالدين، وبالتالي، لا يمكن هذا الخطاب أن يهاجم بالنقد والممارسة الأسس الثقافية التي تعيد إنتاجه، على العكس، إنه يفضِّل اتهام الحداثة - التي غالبًا ما تُخلط بالغرب[15]: الغرب هو الحداثة والحداثة هي الغرب - بأنها سبب جميع المصائب والهوان الذي «لحق الأمة الإسلامية»، ليس لما في الحداثة من أفكار وتصورات للرابطة الاجتماعية والعلاقة السياسية، بل لكون هذه الحداثة عنصرًا خارجيًا، أنتج خارج حدود الأمة، بل أنتجه «أعداء الأمة».

ثانيًا: مفهوم الأمة في الخطاب القومي العربي

من وجهة النظر المعرفية، لا يوجد اختلاف جوهري بين الفكر القومي العربي والفكر الإسلامي في بناء مفهوم الأمة ما دامت الأسس التي بني عليها عند

= سلمية، ثم إن الحركات الإسلاموية لا تعترف للدولة بالحق في احتكار استعمال العنف المشروع، بل لا تعترف لها حتى بشرعية وجودها خارج الانتماء إلى الأمة الإسلامية.

(15) الخطاب الإسلاموي مولع جدًا باستعمال معجم لغوي يختلف عن مفاهيم الحداثة شكلًا، حتى إن كان ليس له أي مضمون، وهذا لتأكيد أصالته وعمق طرحه أمام جماهيره. ضمن هذا المنظور مثلًا اخترعت حركة مجتمع السلم في الجزائر مفهوم «الشوراقراطية» عملًا بالحديث النبوي الشريف الذي يدعونا إلى عدم التشبه بالنصارى الذين اخترعوا الديمقراطية.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

التيارين تنتمي إلى العائلة الأنثروبولوجية نفسها: الدين بالنسبة إلى الإسلاميين واللغة بالنسبة إلى القوميين.

استبدل القوميون العرب الدين الإسلامي كناظم رئيس محوري للأمة باللغة العربية والعرق العربي، لأنهم يعتقدون أن اللغة يمكن حصر امتداداتها وليس لها «أطماع توسعية»، وتحافظ الجماعة المستعملة لها على ثباتها جغرافيًا وسياسيًا وثقافيًا، في حين أن الدين هو عنصر غير ثابت، لا زمانيًا ولا مكانيًا، والأمة المؤلَّفة حول الدين لا يمكن أن تعرف ثباتًا في حدودها الجغرافية ولا تجانسًا في العناصر المختلفة التي تؤلفها (العرق واللغة والثقافة) ما دامت أمة توسعية بسبب الطبيعة الدعوية والنزعة الفتوحاتية لدولة الخلافة (للأمة الإسلامية)[16].

تحت تأثير النزعة القومية الأوروبية، لكن أيضًا تحت تأثير الاستعمار الأوروبي لمعظم الأقطار العربية، بدأ الوعي القومي العربي يتبلور ويأخذ معالمه. حاول القوميون العرب تجنيد جميع الوسائل من أجل توحيد الصفوف ضد المستعمر الخارجي لبناء الأمة العربية التي لم يكن واضحًا حينذاك بعد، إن كانت ستكون «أمة واحدة» أو مجموعة من الأمم العربية التي يمكن أن تتعاون في ما بينها. بالفعل، نجح القوميون العرب في معظم الأقطار العربية في تجنيد الشعوب حول مشروعهم القومي التحرري، مستعملين الموارد المتاحة كلها: الدين، اللغة، الثقافة، الجغرافيا لإثبات الوجود التاريخي الأصلي للشعب المستعمر وأسبقية وجوده على الاستعمار الذي حاول بجميع الطرائق مسح الهوية ونفي أي صفة حضارية عن هذه الشعوب. في الجزائر مثلًا، زرعت فرنسا، لسنوات طويلة، فكرة أن الدولة الجزائرية لم يكن لها وجود على أرضها الحالية، واستطاعت هذه الفكرة أن تجد طريقها إلى أكثر المثقفين استنارة في صفوف الحركة الوطنية. وبقي فرحات عباس، أول رئيس للحكومة الجزائرية الموقتة،

(16) قد يطرح التساؤل التالي: لماذا يحق لليهود المطالبة بالاعتراف بيهودية إسرائيل، أي تشكيل أمة يهودية مؤسسة على الدين اليهودي، في حين نرفض للمسلمين ذلك. نعتقد أن خصوصية اليهودية هي عدم وجود الدعوة فيها، عكس المسيحية والإسلام... فهي لا تقبل إلا من ولد يهوديًا ولا تدعو الآخرين إلى اعتناقها. كما أن المطالبة بيهودية الدولة هي استراتيجيا سياسية أكثر مما هي دينية، تهدف إلى قطع الطريق أمام اللاجئين الفلسطينيين للعودة إلى أرضهم، ولترحيل غير اليهود الذين يشكل عرب 1948 أغلبيتهم.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يردد سنوات طويلة في أربعينيات القرن الماضي، أنه «بحث عن الجزائر في التاريخ والكتب ولم يجد لها أي أثر»، وهذا هو الدافع الذي كان وراء تخندقه في صفوف دعاة الإدماج مع فرنسا بدلًا من النضال والكفاح مع دعاة الاستقلال. قال فرحات عباس مقولته الشهيرة قبل أن يغير قناعاته لينضم بعد ذلك إلى صفوف جبهة التحرير الوطني التي قادت معركة الاستقلال. إذ عرفت جبهة التحرير الوطني، وقبلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كيف تجند الثقافة والدين والهوية واللغة لبناء الوعي القومي الجزائري الذي يعتقد أرمسترونغ أنه ضرورة أساسية لبناء الأمة[17].

تتشابه الحالة الجزائرية بكثير من الحالات الأخرى في العالم العربي، حيث استطاع القوميون العرب تجنيد المتخيل المشترك لشعوبهم من أجل توحيدها لاسترجاع السيادة الوطنية الضرورية لبناء الدولة الوطنية، لكن غير الكافية، لبناء الدولة – الأمة أو الأمة.

بعد استرجاع الدول العربية سيادتها السياسية، ظهر تطلّع أكثر طموحًا عند بعض النخب القومية العربية التي كانت ترى في استرجاع السيادة الوطنية مجرد مرحلة أولى في سيرورة بناء الأمة العربية الموحدة، ففي أي حال، كانت لا ترى في نشأة هذه «الدويلات» إلا مجرد مكيدة استعمارية صنعها الغرب الأوروبي الذي يريد قطع «أواصر الأمة» لمنعها من استرجاع أمجادها التاريخية[18]. يظهر البعثيون العرب أكثر التيارات تحمسًا لفكرة القومية الضرورية لبناء الأمة العربية، وبرأيهم أن جميع مقومات بنائها أضحت متوافرة: سيادة سياسية على الأقطار المحلية، لغة واحدة، جغرافيا ممتدة غير متقطعة. يُعتبر ميشال عفلق وجمال عبد الناصر وزكي الأرسوزي ونديم البيطار من أهم رواد القومية العربية الموحدة، وبُني طموحهم هذا على تصور للأمة ينتظم حول عنصر اللغة بدلًا من الدين. قال طه حسين إن «الأمة العربية آصرة أعمق تاريخيًا من الإسلام، شكّلها الشعر الجاهلي أولًا ثم

---

(17) انظر: Addi Lahouari, «Nationalisme, nation et espace public,» *Le Quotidien d'Oran*, 6, 7 et 8/10/1999.

(18) بالفعل كان الاستعمار الأوروبي (الإنكليزي والفرنسي) وراء نشأة دول عربية عدة بحدودها السياسية الحالية، مثل السودان ولبنان، ووراء تقسيم فلسطين.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

القرآن»[19]. أما المازني فيذهب أبعد من ذلك حينما يدعو القوميين العرب إلى ضرورة خلق الوعي القومي في حال عدم وجوده لأن ذلك إحدى ضرورات الحياة[20].

حتى إن لم نسهب في عرض تعاريف القوميين العرب وتصوراتهم لمفهوم الأمة، إلا أنه يمكن القول إن مفهوم الأمة عند هذا التيار، ولو عرف نقلة نوعية من خلال حصره جغرافيًا وعرقيًا أكثر فأكثر[21]، وتأسيسه على عناصر أكثر علمنة وقربًا من الحداثة من العناصر التي بني عليها عند الإسلاميين، إلا أن تصورهم هذا يبقى سجين الانتماءات العضوية والقبلية والطبيعية التي تنتمي إلى العائلة الأنثروبولوجية نفسها للدين، وتظهر حتى أكثر التصورات عقلانية وعلمية، مثل تصورات نديم البيطار وساطع الحصري، أبعد عن الواقعية والتحقق، ليس لتأسيسها على عنصر اللغة فحسب، لكن لعجزها عن فهم المحيط الدولي الراهن الذي يبدو في جميع جوانبه وأبعاده معاديًا للوحدة العربية شكلًا ومضمونًا[22].

1 - عودة نقدية

حاولنا عرض التيارين الأساسيين المهمين اللذين تصارعا ولا يزالان، على الأسس التي يجب أن تبنى عليها الأمة. إذ يرى **التيار الأول** (الإسلاميون) في الإسلام محورًا أساسيًا لبناء الأمة الإسلامية التي تضم جميع المسلمين بغض النظر عن عرقهم ولغتهم وهويتهم. وأشرنا في هذا الصدد إلى أن خطاب هذا التيار لا يزال متأرجحًا بين وضعين: وضع يرى في الأمة بناء قائمًا منذ نزول الوحي القرآني الذي أسس الأمة من الأعلى، ووضع يرى في وجود الإسلام وانتشاره عاملًا حاسمًا لتجسيد الأمة الإسلامية المنشودة. **أما التيار الثاني** (القوميون العرب)، وهو أكثر تأخرًا تاريخيًا من الأول، فيرى في اللغة والهوية العربيتين موردًا أكثر قوة وواقعية من الإسلام لبناء الأمة العربية الموحدة.

---

(19) عمر، «حول مفهوم الأمة».

(20) المصدر نفسه.

(21) لا نريد أن نقول هنا إن العالم العربي يوجد فيه عرق واحد، حتى إن هيمنت اللغة العربية على باقي الأعراق غير العربية.

(22) للمزيد من التفصيلات عن تصورات القوميين العرب لمفهوم الأمة، انظر: نصار، **تصورات الأمة المعاصرة**.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

من الواضح أنه لم يكن هناك إطلاقًا في صلب نقاشات وسجالات هذين التيارين تصوّر واحد للأمة، فضلًا عن العناصر المؤلِّفة والمؤسسة لها. لا تزال تصورات عدة للأمة تتعايش وتتصارع في الفكر الإسلامي والفكر القومي، بعضها يتصادم وبعضها الآخر يسير في خط متوازٍ لا يلتقي الآخر في أي شيء. ويبقى القاسم المشترك لجميع هذه التصورات افتقارها إلى أي رهان من شأنه أن يدفع مجتمعات العالم العربي إلى الأمام في سيرورة بناء دولة القانون. يبدو أن هيمنة التصورات الدينية - الإسلامية والعروبية - للأمة على العقل العربي والإسلامي هي التي تقف حاجزًا إبيستمولوجيًا وثقافيًا وتاريخيًا وسيكولوجيًا أمام معركة بناء دولة القانون أولًا والدولة - الأمة لاحقًا[23].

بالنسبة إلى الخطاب الإسلامي في شأن مفهوم الأمة، لا يختلف كثيرًا عن خطابه الفكري والسياسي في شأن باقي العناصر الأخرى، ولا يزال يستخدم «معجمًا لغويًا كيفما اتفق، ويأخذ عناصر من هنا ومن هناك من أجل تجييش المتخيل السياسي للمناضلين، إنه يهدف إلى تعبئة الجماهير قبل أي شيء»[24]، بحسب محمد أركون. يحيلنا هذا الوصف الأركوني للخطاب الإسلاموي إلى قضايا وتساؤلات كثيرة في شأن تصوره للأمة والدولة والمواطنة والديمقراطية والحرية.... ما هي الرهانات التي يحملها تصور للأمة قائم على النحو التالي: «الإسلام دين ودولة، والأمة الإسلامية أمة دين وأمة دولة، والمسلمون أمة واحدة تتحقق وحدتهم عندما تقوم الدولة الإسلامية الواحدة»[25]. بمجرد قراءة تصور كهذا ينهمر سيل من الأسئلة على أذهاننا: هل هذا التصور للأمة يقصد بناء الأمة الرمزية المتخيلة أم أنه يعتقد بوجود أمة قائمة تنتظر التوحد سياسيًا في دولة واحدة؟ أم أنه تصور لا يعدو أن يكون تلفيقًا لمجموعة من المفاهيم والكلمات التي ليست لها أي ارتدادات في الواقع المعيش، يعجنها الخطاب

---

(23) يجب الانتباه هنا إلى وجود فرق شاسع بين التصورات الدينية أو القومية والدين والقومية. هذان الأخيران لا يعوقان بناء الأمة أو دولة القانون، لكن التصورات المنتجة اجتماعيًا عنهما، وهي تصورات أنتجها تفاعل عناصر أخرى خارجة عن الدين، مثل الثقافة والتاريخ، هي التي تحول دون ذلك، وهذا كله يفسر عجز النخب العربية والإسلامية، السياسية منها والدينية، عن تجديد الخطاب الفكري في شأن الدين والهوية والقومية.

(24) أركون، ص 20.

(25) هذا هو التصور الذي قدّمه حسن البنا للأمة الإسلامية. انظر: عمر، «حول مفهوم الأمة».

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الإسلاموي بسهولة عجيبة، ليكسب بها تعاطف الشارع العربي؟ وفي حال لم يكن أي واحد من هذه الاحتمالات، ألا يمكن أن يكون إذًا مجرد زرع لوهم بوجود أمة إسلامية، يهدف إلى تأجيل طرح أسئلة الحداثة أطول فترة ممكنة في الفضاء العربي الإسلامي[26]

بسبب ما يعيشه العالم الإسلامي اليوم من تخلف على المستويات كلها، خصوصًا السياسية والاقتصادية، وبسبب انعكاسات الأوضاع الاقتصادية والثقافية والسياسية على تفكير الفرد المسلم (العربي خصوصًا)، فإن هذا الأخير، حينما تسمع أذنه مثل هذا الخطاب، يغوص عقله في الماضي ليعيش لحظات من اليوتوبيا التي كان يحكى فيها أن المسلمين كانوا أمة واحدة تسيطر على العالم، وربما هجرة المسلمين للعيش في صحارى أفغانستان والصومال هي إحدى نتائج هذا الخطاب المؤسطر للأمة، والهارب بها إلى أعماق التاريخ الأسطوري[27]. فبدلًا من أن يواجه الفرد المسلم أسئلة الحداثة وتحديات الراهن والمستقبل، بُني وعيه حول خطاب سياسي لحركات إسلاموية تريد احتكار جميع الرأس مال الرمزي (Capitale Symbolique) للإسلام لنفسها للسيطرة على الوعي والعقل وتحويلهما وعاء انتخابيًا مضمونًا. فالهجرة والتشدد الديني، والعودة إلى أحضان القبلية والعصبية هي أحد ميكانيزمات الدفاع التي يلجأ إليها العقل العربي المسلم العاجز عن مواجهة مساءلات الحداثة، وهو في الأخير ليس عجزًا على مستوى الأفراد بقدر ما يجسد إخفاقًا حقيقيًا لجل المشروعات التحديثية للنخب العربية والمسلمة، لأنها أرادت أن تحدِّث الجانب المادي للحياة الاجتماعية مع الحفاظ على البنى التقليدية القبلية نفسها التي تستمد منها قوتها السياسية وشرعيتها

---

(26) لتبسيط الفكرة أكثر، نريد البحث بأسئلة الحداثة تلك المطالب المتعلقة بالحقوق السياسية والمدنية للفرد العربي والمسلم: أي تصور للأمة يرتكز على هذه الحقوق التي تجسد المواطنة. تأجيل هذه الأسئلة يعني إتاحة المزيد من الوقت للأنظمة الاستبدادية للاستمرار تحت غطاء التصورات التراثية لمفهوم الأمة.

(27) أسئلة الحداثة مثلما هي مضرة للأنظمة الدكتاتورية العربية، هي أيضًا مضرة بالقدر نفسه للتيارات السياسية الإسلاموية. الحداثة تعني دولة القانون التي ستزيح الأنظمة الشمولية من الحكم وتؤسس قواعد لعبة سياسية جديدة. كما أنها تعني بالنسبة إلى الإسلاميين، تجاوز المخيال الاجتماعي للأسس التقليدية التي بُنيت عليها الرابطة الاجتماعية، وهي الأسس التي يتغذى منها اليوم خطاب الحركات الإسلاموية وممارسات الأنظمة الدكتاتورية العربية.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

السلطوية، أي الاستجابة للمطالب المادية لمجتمعاتها مع تقوية البنى الأولية التي يرتكز عليها نظامها الاستبدادي القمعي.

إن مفهوم الأمة، بمعناه الحديث والمركب الذي تشكّل في الفلسفة السياسية المعاصرة، وتجسّد في بعض التجارب الغربية لا يقبل السكون والاسترخاء والماضوية والهروب للعيش في الماضي، إنه يدعو إلى طرح الأسئلة الجوهرية المتعلقة بالعيش المشترك في أمة المواطنين، في رحاب السلم الاجتماعي والسياسي، أي إنه تصور دينامي لا يقبل تعايش مفهوم الأمة مع أنظمة دكتاتورية شمولية رجعية وأصولية.

2- ماذا عن القوميين العرب؟

حتى إن بدا الخطاب القومي العروبي أكثر تقدمية من نظيره الإسلامي، إلا أن الرهانات التي يقف أمامها، والتحديات التي تواجهه تجعله غير قادر على الإفلات من الوقوع في الوهم اليوتوبي الذي سبق أن وقع فيه الإسلامويون. وحتى إن وجب علينا أن نعترف على الأقل بأن مرتكزات القومية العربية هي التي استطاعت رص الصفوف لاسترجاع السيادة الوطنية التي اغتصبها الاستعمار، لكن ينبغي ألا يخفى علينا أن تلك المرتكزات التي بنيت عليها أيديولوجيا الدولة الوطنية منذ ستينيات القرن الماضي وسبعينياته هي التي سمحت للأنظمة الشمولية بالاستمرار وإعادة إنتاج نفسها من دون حرج.

تحت شعار الوحدة العربية، الأمة العربية والقومية العربية، استطاعت الأنظمة الشمولية تجييش الجماهير العربية وقيادة وعيها نحو مشروع وهمي لم تفعل شيئًا من أجل أن يتحقق في الواقع، لأنها تدرك مسبقًا يوتوبيته ولاواقعيته. اعتقدت الأنظمة السياسية العربية أن نجاح الخطاب الشعبوي في توحيد الجماهير حول فكرة الاستقلال سينجح أيضًا في توحيدها وراء تجسيد الوحدة العربية (الأمة العربية)، ولربما هذا هو أكبر إخفاق للنخب القومية العربية بعد نجاحها في معركة الاستقلال الوطني. حتى إن استرجعت السيادة الوطنية، وحتى إن عملت الناصرية والبعثية والبومدينية على تحديث مجتمعاتها اقتصاديًا وماديًا، إلا أن هوسها بالسلطة ونرجسيتها، أدى بها إلى الاستثمار في الشعبوية كأيديولوجيا سياسية

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

واقتصادية، سمحت لها بالاستمرار بالتأكيد، لكنها أفرغت المشروع التحديثي والقومي كله من محتواه ومضمونه، وكرست في المقابل أنظمة شمولية متحدًا بعضها ببعض، لكن تشرذم شعوبها وخنق المجتمع المدني الذي لا يمكن تجاوز بنائه في أي عملية تحديثية حقيقية.

3 - كيف تعوق الشعبوية بناء الدولة - الأمة؟

يقول عالم الاجتماع الجزائري عدي لهواري في خضم تحليله أسباب إخفاق نخب ما بعد الاستقلال في بناء دولة القانون، إن هذه النخب استمرت في استعمال الأيديولوجيا الشعبوية، معتقدة أنها ستؤدي الدور التجنيدي التعبوي نفسه الذي أدته خلال مرحلة الحرب التحريرية، في حين أن «الشعبوية أيديولوجية معركة وتسمح برص الصفوف ضد العدو الخارجي، وبمجرد أن تزول أسباب وجودها (يقصد هنا العدو الخارجي) فإنها تتحول إلى عائق أمام بناء الدولة الحديثة وتدفع الدولة بالاتجاه نحو الاستبداد والدكتاتورية»[28].

بالفعل، نجح الخطاب الشعبوي، باعتباره نفيًا للسياسي (نفي وجود خلافات ذات طابع سياسي ونفي وجود صراع على السلطة) في توحيد تيارات الحركة الوطنية لاسترجاع الاستقلال، لكنه صار أداة ذات فاعلية قصوى خلال المراحل الأولى للاستقلال، لاستمرار الأحادية الحزبية والدكتاتورية السياسية، أي لمحاربة المعارضة والتعددية، وإقصاء المنافسين السياسيين عن السلطة. ويضيف لهواري: «الصعوبات التي تقف في وجه سيرورة الدمقرطة تعود إلى رسوخ الشعبوية في الثقافة السياسية، وهي أيديولوجيا تتعارض تمامًا مع الديمقراطية، بما أن هذه الأخيرة تقوم على وجود مؤسسات منتخبة لحل الخلافات والصراعات الأيديولوجية، الاقتصادية والسياسية في الجسم الاجتماعي. وبحسب الشعبوية، فإن الديمقراطية سوف تؤدي إلى إضعاف الشعب أمام أعداء الداخل والخارج، لأنه تظهره متنوعًا، مختلفًا وغير

(28) Addi Lahouari, «Populisme, néo-patrimonialisme et démocratie en Algérie,» dans: R. Gallisot, ed., *Populismes du Tiers-monde*, Collection L'homme et la société (Paris; Montréal: L'Harmattan, 1997), pp. 215, 221 et 227 sqq.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

متجانس»[29]. لهذه الأسباب إذًا «ليس هنالك حاجة - بحسب الأيديولوجية الشعبوية - لإعادة توزيع السلطة داخل الجماعة السياسية، على العكس يجب أن تكون مركزة بين أيدي من يمثل كل الشعب، وذلك لتقوية تجانسه وتناغمه... ولهذا نجد رئيس الدولة يجب أن يكون في الآن نفسه، رئيسًا للحكومة، رئيسًا للحزب الحاكم، قائدًا أعلى للجيش»[30].

حتى إن كان تحليل عدي لهواري مركزًا على الحالة الجزائرية، إلا أنه من السهل إيجاد قواسم مشتركة بين البومدينية الجزائرية والناصرية المصرية والبعثية السورية والعراقية، أما الممالك الخليجية الأخرى فإن تجربة البناء الدولتي فيها أخذت مسارًا آخر لكنه يصب في الآخر في هذه التجارب عند النقطة نفسها: الدولة المستبدة، المتغولة، حيث النظام السياسي الشعبوي فيها لا يضع أي حدود بين أملاكه وأملاك الدولة (أنظمة باترمونيالية)[31].

من الواضح إذًا، أن دولة شمولية، دكتاتورية قائمة على أيديولوجيا شعبوية لا يمكن أن تتطور لتصير أمة، أي إن الشعبوية التي تعوق بناء دولة القانون، وتعيد إنتاج أنظمة شمولية لا يمكن أن يتصور أحد بأنها ستساعد مجموعة من الأنظمة الشعبوية في بناء الدولة - الأمة أو الأمة العربية. إذ أفرغت الشعبوية مفهوم الأمة، بمعناه الحديث والمعاصر، من محتواه ورهاناته، وجعلته خطابًا خاويًا جاهزًا لأن ينقضّ عليه قادة الحركات الإسلاموية الراديكالية لاختطافه مجددًا وركوبه نحو السلطة[32]. حتى نتمكن من التقدم في التحليل، سيكون من الضروري تقديم

---

(29) Addi Lahouari: «L'Islamisme comme représentation sociale et volonté idéologique,» dans: *[Algérie], Chroniques d'une expérience*, pp. 131-148.

(30) Addi Lahouari, «De la permanence du populisme algérien,» *Peuples méditerranéens*, nos. 52-53 (Juillet-Décembre 1990), pp. 37-46.

(31) الباترمونيالية (patrimonialisme): يترجمها بعضهم «الإرثية»، وهو مصطلح أنشأه ماكس فيبر لوصف الدولة الأوروبية ما قبل الحديثة، حيث لم يكن من تمييز بين أملاك الأمير وأملاك العامة (أملاك الدولة)، أي إن الأمير يتصرف في دولته كأنها ملك خاص. ولأن هذه الحالة لم تعد موجودة بالشكل الفيبري نفسه، أعاد إيلزنستنت إحياءه مع إضافة كلمة «جديدة»، أي الإرثية الجديدة (neopatrimonialisme) لوصف ظاهرة خوصصة الدولة في العالم الثالث.

(32) يؤكد عدي لهواري في كثير من كتاباته، أن شعبوية النظام هي التي أنتجت الجبهة الإسلامية للإنقاذ لأن خطابه لم يكن أبدًا متعارضًا مع خطاب جبهة التحرير الوطني. فخطاب الإسلاميين هو=

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

المزيد من التفصيلات عن المفهوم الحديث والمركب للأمة في الفكر السياسي المعاصر ما دام أنه التصور النقدي الذي رفضنا به تصورات الإسلاميين والقوميين لمفهوم الأمة.

ثالثًا: الأمة/ الدولة - الأمة: القطيعة التاريخية والإبيستمولوجية

على غرار مفهوم المجتمع المدني الذي لم يستطع أن يثبت على معنى واحد منذ نشأته إلى اليوم، عرف مفهوم الأمة أيضًا تغيرات ارتبطت بالدينامية السياسية والاجتماعية للمجتمعات الغربية التي نشأ فيها[33].

يُظهر تاريخ تطور مفهوم الأمة عجز النخب السياسية والفكرية في العالم العربي، بانتماءاتها الأيديولوجية المختلفة، عن قراءة هذا المفهوم ضمن ديناميته وسياقاته التاريخية[34]. بالفعل كان هذا المفهوم يشير يومًا ما إلى الدولة القومية بحدودها السياسية، والأدبيات الغربية التي ترى فيها ذلك كثيرة وما زالت قائمة ولا يمكن حصرها. بل من نافلة القول التصريح أن هذا التعريف الذي يربط الجغرافيا بالجماعة الاجتماعية ما زال مهيمنًا حتى عند بعض المفكرين الغربيين. لكن يجب أن نشير أيضًا إلى أن الفكر الغربي استكان إلى مثل هذا التعريف الذي يحصر الأمة أيضًا في حدود جغرافية وعرقية إثنية، بعدما خاض من قبل (مفهوم الأمة) مع مفاهيم أخرى (المجتمع المدني والعلمانية) معركة الديمقراطية والمواطنة وبناء دولة القانون، ولذلك من غير المفيد إطلاقًا أن نقبض على مفهوم الأمة في تجلياته النهائية، وألّا نأخذ في الحسبان تطوراته التاريخية والرهانات التي حملها

= خطاب شعبوي يريد استبدال رجال السلطة برجاله الأتقياء المؤمنين. انظر في هذا الصدد: Addi Lahouari, *[Algérie], Chroniques d'une expérience postcoloniale de modernisation*, Le cours des choses (Alger: Barzakh, 2012).

(33) انظر: عزمي بشارة، المجتمع المدني: دراسة نقدية، ط 6 (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

(34) ليس هذا استثناء خاصًا بمفهوم الأمة، بل تكاد جميع مفردات الحداثة تعاني هذا القلع من السياقات التاريخية، ويقرأها المفكرون العرب وينقدونها بمعزل عن السياق التاريخي الذي أنتجها. فالعلمانية، المجتمع المدني، الديمقراطية، الوضعية هي أيضًا ضحية القلع والتحوير اللذين تمارسهما عليها عمدًا أو عن غير عمد النخب الفكرية والسياسية في العالم العربي.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

على الدوام، أي إن السؤال الذي يجب أن نطرحه حينما نقف عند تعاريف اختزالية كهذه هو: ما الفائدة من السعي إلى بناء أمة - أو أمة عربية أو أمة إسلامية - ضمن رقعة جغرافية محدودة، يسكنها عرق يتحدث العربية أو يدين بالإسلام، إذا لم يشر هذا المفهوم إلى ضرورة إعادة النظر في طبيعة الرابطة الاجتماعية وعلاقات السلطة؟ أي من دون الحديث عن ضرورة دمقرطة الحقل السياسي الذي يعني القضاء على الأنظمة الشمولية[35]. إنه السؤال عينه تقريبًا الذي يطرح عند التعاريف المختزلة للمجتمع المدني في الحركة الجمعوية والمنظمات الأهلية التي لا يراد منها ممارسة السياسة، أي خوض معركة الديمقراطية[36].

من وجهة النظر الإجرائية والمعرفية، أجد في ملاحظة عزمي بشارة في شأن مفهوم المجتمع المدني تطابقًا كبيرًا مع مفهوم الأمة، خصوصًا مع تأكيده في هذا التحليل أن الأمة هي المجتمع المدني في أحد مراحل تطورها[37]. ويبدو جليًا أن الخيبة التي أصيب بها مفهوم المجتمع المدني أصابت أيضًا مفهوم الأمة، وربما كان هذا دافعًا قويًا لأن يخصص بشارة فصلًا كاملًا لمفهوم الأمة في كتابه **المجتمع المدني: دراسة نقدية**.

لعله تسهل معرفة أننا لن نتخندق في صف الساكنين إلى مفهوم الأمة والمرتاحين إليه، لأنه بالنسبة إلينا مفهوم نقدي يثير تساؤلات الحداثة والديمقراطية ويدفع إلى خوضها، وليس مفهومًا يهدف إلى تجميع المسلمين أو العرب في كتلة جغرافية واحدة من دون التساؤل عن الحقوق السياسية للأفراد: أي من دون خوض معركة الديمقراطية والحرية. إننا نرفض أن يهرب مفهوم الأمة بالعقل والوعي إلى الماضي ونفضِّل أن يكون متطلعًا إلى المستقبل لمواجهة الأسئلة الحقيقية التي تطرحها الحداثة والعولمة.

---

(35) تزداد حدة هذا التساؤل إلحاحًا حينما ندرك أن الديمقراطية والحرية أصبحتا من العناصر غير المفكر فيها (التي يستحيل التفكير فيها أحيانًا) عند الإسلاميين، لأنهما تتعارضان مع الاستراتيجيات السلطوية التي رسموها ووضعوها للوصول إلى الحكم.

(36) للمزيد عن موضوع المجتمع المدني وواقعه في العالم العربي، انظر: بشارة، **المجتمع المدني**.

(37) المصدر نفسه، ص 336.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

- في مفهوم الأمة

تراكمت بسرعة هائلة الأدبيات التي تناولت موضوع الأمة من أبعاد مختلفة، في الفكر العربي الإسلامي كما في الفلسفة السياسية الغربية المعاصرة. لن نقوم بوضع لائحة لأهم التعاريف الأكثر حداثية (بالمعنى الذي ندعيه في هذه الدراسة) ومناقشتها، لأن الأمر لا يتعلق أبدًا بمناقشة المفهوم من خلال تعاريف متناقضة، بل سنحاول تقديم المقاربة التي اعتمدناها منذ البداية في نقد التصور الإسلامي لمفهوم الأمة وتفكيكه.

أعتقد أنني لتحقيق هذا الهدف - وضع تصورات الإسلاميين والقوميين أمام محك الحداثة وجهًا لوجه - لن أجد أفضل من مثال استهل به عالم الاجتماع الجزائري عدي لهواري مقالة له، في شأن مفهوم الأمة، ليبيّن الفرق بين دولة - أمة (Etat-Nation) متحققة ودول (مجتمعات) لا تزال في طريقها إلى بناء الدولة - الأمة.

يقول لهواري: «تخيل نفسك وأنت تستمع إلى جهاز الراديو، وفجأة تسمع الخبر التالي: لقد تمت الإطاحة بالوزير الأول البريطاني عن طريق انقلاب عسكري! لن تصدق أذنيك بالتأكيد لأننا نعرف بأن الحقل السياسي في بريطانيا يسوده السلم منذ مدة طويلة، ولا يمكن أن نتصور وجود انقلاب عسكري فيها. ولكن إذا ما سمعنا في نفس النشرة الإخبارية خبرًا يقول: حدث انقلاب عسكري في سوريا أطاح بنظام الأسد. لن نتعجب من الخبر لأننا نعرف أن الطريقة الوحيدة لتغيير النظام السياسي في سوريا لا يمكن أن تكون إلا بانقلاب عسكري أي بالقوة. إذن، في الحالة الأولى (إنجلترا) الحقل السياسي يسوده السلم لأنها دولة - أمة، في حين أن الحالة الثانية ليست بدولة - أمة بعد، إنها في طريق التشكل ولا أحد يستطيع التنبؤ بالفترة التي ستستغرقها عملية تشكل وبناء الدول - الأمة»[38].

من خلال هذا المثال، تظهر الخاصية الأساسية الواجب توافرها في الدولة - الأمة، وهي سلمية الحقل السياسي، فبالنسبة إلى لهواري، نقول عن مجتمع ما أنه بنى أمته حينما يكون «حقل السياسي (le Champs du politique) سلميًا لا رجعة

(38) Lahouari, «Nationalisme».

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

فيه، وانطلاقًا من هذا الشرط الأساس، فإنه يتصور أن الأمة هي عبارة عن سيرورة تاريخية طويلة جدًا، تظهر خلالها في مجتمع ما قيم تعاقدية تؤسس للوئام الوطني والسلم الاجتماعي»[39].

تسود هذه الوضعية التاريخية في المجتمعات التي قطعت شوطًا كبيرًا في بناء دولة القانون، حيث المجتمع المدني بلغ بدوره درجة متقدمة من النضج التاريخي، ولهذا السبب نجد الأدبيات المهتمة بموضوع الأمة تهتم أيضًا بموضوع المجتمع المدني لأن كلاهما وجه لعملة واحدة، ومثال كتاب عزمي بشارة الذي ذكرناه سابقًا يصب في هذا الاتجاه. وكما نعرف، فإن المجتمع المدني والدولة الحديثة هما المرحلتان الأساسيتان اللتان مهدتا لسلمية الحقل السياسي في أوروبا الغربية، أي إن الدولة - الأمة جاءت متأخرة تاريخيًا عن المجتمع المدني ودولة المؤسسات الشرعية[40]. انطلاقًا من هنا، كيف أمكن الحديث عن الأمة العربية و هذه المعارك كلها لم تُحض بعد؟ ألا يؤدي استعمال مفهوم الأمة، كبناء جاهز، وبهذا الشكل الواسع إلى غض الطرف عن معركة الديمقراطية وبناء دولة القانون وبناء المجتمع المدني؟ ألا يمكن أن تقف الأمة الموعودة شاهد زور - إذا ما أردنا استعارة تعبير بشارة في حديثه عن المجتمع المدني في العالم العربي - على اغتيال دولة القانون والمجتمع المدني معًا والتستر على بقاء الأنظمة الدكتاتورية التي تُحكم قبضتها على ما يسمى بالأمة؟ ثم في الآخر، ألا يوفر مثل هذا الخطاب عن الأمة، غطاء أكاديميًا لخطاب سياسي يريد إفراغ مفاهيم الحداثة من دولة - أمة ومجتمع مدني من رهاناتها الحقيقية واختزالها في زوايا ضيقة كل ما يهم فيها هو التركيز على أن لا تمارس السياسة (أي لا تسائل الأنظمة والنخب عن الديمقراطية وتداول السلطة والحرية)؟

يوجد كثير من البراهين والحجج التي تنفي عن بلدان العالم العربي صفة الدولة - الأمة. إن «الأمة عبارة عن جماعة سياسية حيث الحقل السياسي فيها

---

(39) Lahouari, «Nationalisme».

(40) برأي المؤرخ الفرنسي الشهير جيلبير ماينييه لم يعرف العالم حتى عام 1830 إلا أمتين: الأمة الإنكليزية والفرنسية، أي حتى ألمانيا التي لم تكن موحدة بعد لم ترق إلى صفة الدولة الأمة. وبالفعل، فإن أعرق ديمقراطيتين في العالم هما الإنكليزية والفرنسية. انظر: Meynier, «Problématique historique».

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يسوده ويحكمه السلم، لذلك فإن الجماعة السياسية التي يكون فيها تغيير النظام السياسي بالعنف المسلح ليست أمة، كما أن جماعة سياسية ما لا يتغير فيها الرئيس إلا بالموت أو الانقلاب ليست هي أيضًا أمة، لأن هذا الاقتتال يدل على غياب قيم تعاقدية اجتماعية بين أفرادها، وبالتالي هنالك أفراد داخل الجماعة السياسية لا يتفقون في شأن هذه القواعد والقيم، وهذا بدوره يدل على أنه لا يزال هنالك من الأفراد والجماعات من يستعد للاقتتال بسبب هذا الخلاف والاختلاف. كما يدل أيضًا على أن النظام السياسي الذي يحكم هذه الجماعة السياسية لا يشمل ولا يمثل أغلبية أفرادها، في حين أن الأمة عبارة عن جماعة إنسانية مندمجة عن طريق نظام سياسي تحكمه قواعد التنافس على السلطة مقبولة من طرف الجميع»[41] لهذه الأسباب والخصائص الواجب توافرها في بناء الأمة قال جاد الكريم الجباعي إن «تشكل الأمة الحديثة هو أحد مظاهر الحداثة»[42].

من الواضح جدًا أن جميع الصفات التي تبيّن ما هو ليس أمة موجودة في دول العالم العربي اليوم. لكن يجب أن نشير هنا إلى أن استمرار الاستبداد في العالم العربي ليس وحده ما يمنع تشكل الأمة، بل هذا الاستبداد هو انعكاس آخر لمشكلات أخرى، هي التي تعوق بناء الأمة.

يرى بعض المفكرين أن استمرار البنى التقليدية في المجتمعات العربية هو الذي يمنع الدولة المركزية من امتصاص جميع المقومات السياسية الموجودة في المجتمع، الأمر الذي يجعل الولاءات الأولية (العشيرة، القبيلة) تحتفظ بكثير من السلطة السياسية الرمزية، وهذا في حد ذاته يشكل عجزًا في مؤسسات الدولة عن إدماج التشكيلات الاجتماعية المختلفة المكونة لها، ويطرح بقوة إشكالية غياب التعاقدية في القوانين المنضمة إلى المؤسسات. يقول عزمي بشارة: «تلعب الولاءات التقليدية دور مجند فعال للقتال، ولكنها تتحول إلى عائق جدي في ساعات المحن والأزمات، وتصطدم البنى التقليدية في البداية مع مشروع التحديث الذي تشكل الأمة بالنسبة إليه المجتمع المدني»[43]. ولهذا السبب

---

(41) Lahouari, «Nationalisme».

(42) الجباعي، «الأمة.. والعصبية».

(43) بشارة، ص 336.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يشترط جاد الكريم الجباعي ضرورة تفسخ البنى التقليدية وانحلالها لبناء الأمة الحديثة[44].

يتجلى إذًا، أنه لا يمكن طرح إشكاليات الأمة قبل حل إشكاليات أخرى أولى منها: إشكالية دولة القانون والمجتمع المدني والفضاء العمومي، فالنقاش في شأن الأمة في هذه المرحلة هو قفز عن المراحل، وتجاهل للأسئلة الحقيقية الواجب طرحها في وقتها. إن ما نقول عنه إنه عائق لبناء الأمة، هو في الحقيقة عائق أمام بناء دولة القانون أولًا، لكن التناقض الكبير الذي يقع فيه الخطاب الفكري والسياسي العربي هو أنه يحاول تجنيد تلك العناصر التي تحول دون فتح ثغرة في جبل الاستبداد لبناء تصورها للأمة. يريد العرب بناء أمة باستعمال القومية والدين واللغة، في وقت بُنيت فيه الدولة الحديثة في الغرب على الفضاء العمومي: السوق (الاقتصاد الإنتاجي) والمواطنة، وقذف بعناصر مثل اللغة والدين والعرق والقبيلة، نحو الفضاء الخاص. إن الفكر القومي، في خطابه عن الأمة، يريد البقاء في السلطة بأي ثمن كان، حتى إن استلزم الأمر أن يناقض خطابه بممارساته: ينادي بالقومية العربية الموحدة، لكنه غير مستعد لتداول السلطة[45]. كما أن التيار الإسلامي يريد الوصول إلى السلطة بأي وسيلة، حتى إن اقتضى الأمر الهروب بالوعي العربي إلى الأسطورة التاريخية للأمة الإسلامية.

خاتمة

نضع الاستنتاجات الآتية:

- لأعوام طويلة، بقي مفهوم الأمة في الفكر العربي الحديث والمعاصر أداة للتراشق الأيديولوجي بين التيارات السياسية والفكرية والأيديولوجية المختلفة، ولم يستطع هذا المفهوم أن يفلت من قبضة الخطاب الديني والعروبي القومي إلى يومنا هذا.

---

(44) الجباعي، «الأمة.. والعصبية».

(45) سيتساءل الفرد العربي بالتأكيد عمن سيحكم الدولة القومية العربية الموحدة؟ هل ستجرى انتخابات أم ستُستحدث طريقة غير معروفة اليوم لشرعنة السلطة السياسية؟ كيف لحاكم يرفض التداول على السلطة في بلده أن يقبل التعددية في أمة عربية أوسع وأشمل؟ في أي حال، المجال الوحيد الذي تحققت فيه الوحدة العربية اليوم هو جامعة الدول العربية، ويلاحظ أنه منذ نشأتها ومصر لا تزال تحتكر رئاسة الأمانة العامة.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

– على غرار مفردات الحداثة الأخرى، أدت أدلجة مفهوم الأمة إلى إفراغه من محتواه الحقيقي وشحنه بتصورات لا تخدم إلا العاملين على البقاء في السلطة أو الساعين إلى الوصول إليها، أي مصادرة الحقوق السياسية بالحقوق اللغوية والدينية على حد تعبير جاد الكريم الجباعي وعبد الغني العريسي[46].

– في وقت استطاعت فيه الدولة – الأمة في الغرب القضاء على البنى التقليدية المنافسة لسلطة الدولة وشرعيتها، مثل سلطة العشيرة، القبيلة والسلطة الدينية، استمر الخطاب القومي والخطاب الإسلاموي في العالم العربي في ترويج خطاب عن الأمة، يقوم على عناصر ما قبل حداثية، بل عناصر تمنع الحداثة من التقدم إلى مجتمعاتنا.

– وفّر مثل هذا التصور ما قبل الحداثي للأمة، غطاء فكريًا لتبرير الاستبداد السياسي وهروب الوعي الديني العربي إلى الماضي.

– لذلك، حاولنا في هذه الدراسة، أن نتجاوز التصورات الأيديولوجية للأمة، وأن نرافع لمصلحة تصور مؤسس في شأن مفردات الحداثة، لأننا نعتقد أن هذه المفردات لا يمكن أن يحتكرها عرق أو ثقافة أو حضارة معينة. إن الديمقراطية، حقوق الإنسان، المجتمع المدني، الفضاء العمومي ما هي إلا بُنى تاريخية إنسانية، تستجيب لحاجات اجتماعية بغضّ النظر عن دينها ولغتها، تتألف في سياقات التنافس والصراع الاجتماعيين، وليس في نفي وجودهما باسم الشعبوية.

– من هنا رأينا في مقاربة للأمة على أسس سياسية، تطرح بالدرجة الأولى إشكاليات التداول السلمي على السلطة وحقوق المواطنين، ليس فحسب تجاوزًا للمجادلات الأيديولوجية التي دأب فيها الإسلاميون والقوميون، لكن أيضًا مقاربة عملية تأخذ في الحسبان واقع الدول العربية اليوم ورهانات المستقبل. رهان يرتكز أساسًا على الديمقراطية والعيش في مجتمع يسوده السلم والاندماج الاجتماعيين.

– إن التصور الحديث والمركب للأمة من شأنه أن يستعيد هذا المفهوم من

---

(46) جاد الكريم الجباعي، «الجذور التاريخية لانفصال مفهوم الأمة العربية عن مفهوم الدولة،» الأوان، 5 حزيران/ يونيو 2007، على الرابط: <http://www.alawan.org/article322.html>.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

قبضة الإسلاميين والقوميين الذين أفرغوه من جميع محتوياته السياسية والحداثية، وشحنوه بعناصر هي التي تقف اليوم في وجه سيرورة بناء دولة القانون.

- إن بناء دولة القانون الديمقراطية المحترمة لحقوق الإنسان عبارة عن سيرورة تستغرق مدة زمنية طويلة قد تصل قرونًا، والدينامية التي تسمح بالشروع في بنائها يجب أن يتوافر لتحررها مجموعة كبيرة من العوامل المادية واللامادية (اقتصاد إنتاجي، نخب فكرية مستقلة، مجتمع مدني، زوال البُنى الاجتماعية التقليدية).

- إنسان الشارع في العالم العربي، لانبهاره بالتجربة الغربية في مجال التنظيم السياسي والرفاهية الاقتصادية، لا يمكن أن يدرك بسهولة أن تلك التجربة استغرقت قرابة ثلاثة قرون من الزمن، ولم تنتج من رحم الثورة الفرنسية وحدها، مثلما تعلّمنا في كتب التاريخ المدرسية. لهذا نجد الفرد العربي اليوم، يريد «حرق» المراحل الموصلة إلى تحقيق هذه التجربة، عن قصد أو غير قصد، وهو يجد في إسقاط الأنظمة في الشارع الهدف والغاية في الآن نفسه.

- بالفعل لا يمكن أن تتحرر دينامية بناء دولة القانون الديمقراطية المحترِمة حقوق الإنسان مع وجود هذه الأنظمة الشمولية المعطلة للفكر الحر والعمل المنتج الخلاق للثروة والمعرفة العلمية المستقلة. لكنه لا يمكن أيضًا أن تتحرر في ظل التناقضات التي تميز تمثلاتنا وتصوراتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية: فيما نرفض استمرار النظام السياسي الاستبدادي ونعمل على إسقاطه، نحلم بوجود بديل منه يتشكل من أفراد يؤمنون بالله ويخافونه سيأتون لنا بالعدالة على حساب الحرية، ويبنون لنا الأمة الموعودة. إننا نعتقد ونحلم في الآن نفسه، بأننا إذا ما جئنا بأشخاص متقين سيخلصوننا من التخلف واللامساواة وسيقسمون علينا الأموال التي تدرها صادرات المحروقات بالعدل، وسوف نعيش في رفاهية حتى من دون أن نعمل وننتج ما دام الله سخر لنا اليهود والنصارى ليستخرجوا ثرواتنا ويبيعوها في الأسواق العالمية ونتقاسم معهم الأرباح. إن مثل هذه التصورات التي تجد مبررات وجودها في ثقافتنا وتاريخنا وقيمنا، هي التي أتت اليوم بالأنظمة الإسلاموية إلى الحكم في البلدان التي عرفت ثورات على حكامها.

- لا يمكن أن نتصور أن الإسلام لا يتوافق مع دولة القانون والديمقراطية

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

والدولة - الأمة المؤسسة على المواطنة. مثل هذا الاعتقاد الذي تذهب إليه وسائل الإعلام الغربية، لا يعبِّر إلا عن نظرة إثنومركزية لا تضع هذه البُنى التاريخية في سياقاتها.

- لكن أيضًا، ينبغي ألا نتصور أن الديمقراطية، دولة القانون والحرية لا تتوافقان مع الإسلام. هذا الاعتقاد أيضًا لا يعبر إلا عن نظرة اختزالية، تبسيطية وإثنومركزية يروّجها الخطاب الديني الذي يخاف أن يفقد الأسس التي يعيد إنتاج نفسه عليها، أي الامتيازات التي يعتقد أنها ستوصله يومًا إلى السلطة.

- لذلك، فإن «المسلمين اليوم مجبرون على البحث عن أفضل الصيغ للتوفيق بين الإيمان (الدين) والحريات الفردية والجماعية، وهذا للتمكن من عيش حياتهم بكل كرامة وأمن، بعيدًا عن الماضوية والظلامية. حينما يتحقق هذا، حينئذ فحسب تصبح دولة القانون، والدولة - الأمة ليست حكرًا على الثقافة الغربية»[47].

(47) Addi Lahouari, *L'Impasse du populisme: L'Algérie, collectivité politique et état en construction* (Alger: Entreprise nationale du livre, 1990), p. 14.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous